إسهام كتب التراجم المغربية في كتابة تاريخ مملكة سنغاي

أ. عبد الرحمن خليفة جالو
باحث في التاريخ والدراسات الإفريقية – مالي

لقد قامت بين مملكة سنغاي وبين مختلف مناطق بلدان المغرب العربيّ روابطُ وصلاتٌ سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية، عميقة الجذور وإيجابية المسارات ومتينة المعطى، اقتضتها طبيعة الجيرة والعامل الدّينيّ المشترك والحاجة البيولوجية للبشر، أدّى ذلك كلّه إلى شبه تلاقحٍ وتقاربٍ في الطّباع والفكر والعُرف آنذاك.

فــكان من مظاهر وجود ذلك التّواصل والتّبادل بين الطّرفَيْن، على الرّغم ممّا بين القُطرَيْن من بُعد مسافات السّــير في الصّحراء القاحلة، عنايةُ عدد من علماء المغرب العربيّ- قديماً وحديثاً- بمملكة سنغاي في مرحلتها الأخيرة، في كتبهم المؤلَّفة في التّراجم، وذلك من خلال طرحهم لإشاراتٍ تاريخية تخصّ تلك المملكــة؛ في ثنايا أخبار بعض الأعلام التّي أوردوها في كتبهم.

تأريخ حركة عناية كتب التراجم المغربية بمملكة سنغاي:

الظّاهــر أنّ بداية حضور الإشــارات والأخبار التاريخية حول مملكة ســنغاي في كتــب التّراجم المغربية تعود إلى القرن العاشر الهجريّ/ السّادس عشر الميلادي؛ وذلك عندما ترجم محمد بن عسكر الحسنيّ الشّفشــاوني (ت٩٨٩هـ) للإمام محمد بن عبدالكريم المغيلي (ت٩٠٩هـ)؛ مبيّناً بعض جهوده الدّعوية فــي تلك المملكة وأخــلاق مَلِكهَا آنذاك، ثمّ توالــت من بعده عنايةُ عــددٍ من أصحاب كتب التّراجم المغربية؛ بكتابة سِــيَر حياة بعض رجالات السّياسة والعلم لتلك المملكة إلى القرن الرّابع عشر الهجريّ/ العشرين الميلادي.

أهمية استخدام كتب التراجم المغربية في كتابة تاريخ مملكة سنغاي:

تُمثِّل كتب التّراجم المغربية اليومَ أهمّ المصادر الأولية التّي لا يكاد يستغني عنها أحدٌ من الباحثين والكتّاب والمؤرّخين المعاصرين المعتنين بدراســة تاريخ مملكة سنغاي وحضارتها؛ باعتبار أنّ الباحث قد يجد في تلك الكتب «ما يســدّ به الثّغرات التّي تبقى عادةً في المؤلّفات التّاريخية المتخصّصة ولا تتعرّض لهــا، كما أنّ هذه الأخبار التّي تأتي عرضاً [قــد] تكون أقرب إلى الصّــواب، والخُلوّ من الدّس والغرض»[1].

كما أنّ لتلك الكتب أهميةً خاصّةً في رصد جانبٍ من تاريخ الحركة الثّقافية والعلمية في مملكة سنغاي خلال القرن: العاشر الهجريّ/ السّادس عشر الميلاديّ، أضف إلى ذلك كون المــادّة التاريخية المخزونة فــي بطون تلك الكتب مما يمكن أن يكون مصدراً لاستخلاص الدّروس والعِبَر، واســتلهام القدوات الحسنة، ووســيلة من وسائل التربية الذاتية الإسلامية الموجَّهة.

حدود إسهام كتب التراجم المغربية في كتابة تاريخ مملكة سنغاي:

بناءً على ما تقدّم؛ يظهر في هذا المقال أهمية اســتعراض كتب التراجم المغربية مقرونةً بموجزٍ تعريفيٍّ لها، وبيــان حدود إســهاماتها وإضافاتها القيّمة في تســليط الضّوء علــى جوانب من تاريخ مملكة سنغاي، ومن تلك الكتب:

أولاً: (دوحة النّاشر لمحاسن مَن كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر) لابن عسكر الحسني[2]:

هذا الكتاب أشــبه بنمط التّأليف المُســمّى بـ«الفهرســة»، وإن كان موضوعــه هــو التعريف بفقهاء المغرب العربي ومتصوّفيه، الذين عاشــوا في القرن العاشــر الهجري بصفــةٍ خاصّة- الذين وصلت أخبارهم إلى مؤلِّفه؛ سواء عن طريق الكُتب أو بواسطة المشاهدة أو بطريق التّواتر ونقْل العدل عن العــدل- إلاّ أنّ صاحبه، فــي معرض ترجمته للإمام العلامة محمد بن عبدالكريم المغيلي، جنح

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري مع دراسة لتطور التدوين ومنهاج المؤرخين: د.محمد بن صامل السلمي، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٣٢٦.

(٢) دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر): محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م

به قلمه إلى تقديم معلوماتٍ قيّمة، احتوت ذكر بعض الجهود الدعوية لهذا الإمام في بلاد سنغاي وموقف مَلِكِهم من اليهود التّجـار في إيالاته (الأقاليم التي يحكمها).

فبيَّـن ابن عسـكر أنّ من ثمار دعـوة الإمام المغيلـي التي وصلت إلى بلاد السـودان: إسـلام سـلطان تنبكت- أيّ أسـكيا الحاج محمّد بن أبي بكر (ت٩٤٤هـ)- على يدَيْه أو إسـلام أهل سلطنته عليه[١]، وبقاء الإسلام غضّاً في تلك البلاد وشعائره مسـتجدّة، وأشـار إلى بلوغ ملك سنغاي الغاية في تعظيم العلـم والعلماء وأجلّاء أهـل البيت النبويّ وإكرام الغرباء[٢].

كما أفاد ابن عسـكر أنّ ملك تنبكت كان عدوّاً لدوداً لليهود[٣]؛ فلا يسمح لهم بالدّخول في مملكته والإقامـة فيها، وأنّ مَـن ظهر منهـم هنالك قُتل واسـتبيح ماله، وكذلك مَن ضُبـط من الرعية في علاقة تجارية معهم صُودرت أمواله؛ وذلك بناءً على مذهـب المغيلي في يهود توات، ووصيّته لسـلطان تنبكت[٤].

لا شـكّ بأنّ هذا القرار من ملك سـنغاي- إن ثبـت أمره- كان في ظرفٍ محـدودٍ جدّاً لا يتجاوز الشّـهر- على ما يبدو-، فلم يستمر تعميمه والعمل به إلى زمن حلول الحسـن الـوزّان ضيفاً على تلك البـلاد، وهو سـنة ٩١٨هـ، فسـرعان ما اعترض قاضـي تنبكت أبـو الثّناء محمود بـن عمر أقيت (ت٩٥٥هـ) على هذا القرار؛ فاستطاع إقناع أسكيا الحاج محمد بأنّ اليهود لا ذنب جنَوه يكون سبباً في أن يرسفوا في الأغلال[٥]، كما أنّ هذا القرار الجائر يتنافى مع ما وصف به ابن عسـكر «أسـكيا الحاج محمد» من «إكرام الغرباء»، ومع ما اشـتهر عنه من صفة العدالة.

ثانياً (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان) لابن مريم المديوني (ت بعد ١٠١١هـ)[٦]:

لقد ترجـم ابن مريم المديوني في هذا الكتاب لنحو ٢٨٠ رجـلاً من علماء تلمسـان وصلحائها، وحشـر معهم العلّامة خليل الجنـدي (ت٧٧٦هـ) صاحب المختصر المشـهور في الفقـه المالكيّ؛ وذلك- حسـب زعمه- لالتماس بركته، وقد انتهى من تأليفه سنة ١٠١١هـ[٧].

---

(١) الواقع أن سلطان تنبكت وأهل مملكته لم يُسلموا على يدي الإمام محمد بن عبدالكريم المغيلي، وإنما اتصل بأسكيا الحاج محمد حوالي ٩٠٨هـ/١٥٠٢م، أي بعد انتشار الإسلام في تلك الديار السودانية بعدة قرون. (دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر): محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص١٣١، حاشية رقم:٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣١.

(٣) وقد تبع ابن عسكر على ذلك محمّد بن أحمد الحضيكي، ولعلّهما نقلا ذلك عن الحسن بن محمد الوزّان الفاسيّ. انظر: (وصف إفريقيا): الحسن بن محمد الوزّان الفاسيّ، ترجمه عن الفرنسيّة: محمد حجّي ومحمد الخضر، دار الغرب الإسلامي، ط/٢، ١٩٨٣م، (١٦٧/٢). وطبقات الحضيكي: محمد بن أحمد الحضيكي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء-المغرب، ط/١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، (٢٤٦/٢).

(٤) (دوحة الناشر لمعرفة من كان بالمغرب من أهل القرن العاشر)، مصدر سابق، ص (١٣١-١٣٢).

(٥) (نيل الابتهاج بتطريز الديباج): أحمد بابا التنبكتيّ، إشراف وتقديم: عبدالحميد عبدالله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط/٢، ١٣٩٨هـ/١٩٨٩م، ص٥٧٨.

(٦) ألّف ابن مريم المديونيّ هذا الكتاب بناءً على رسالة كتبها أحد أحبابه، يلتمس منه فيها تأليف كتاب يتضمن أولياء تلمسان وأعمالها ومن كان بها من فقهاء، الأحياء منهم في زمنه والأموات، فما كان منه إلاّ أن يسعفه بطلبه؛ لما في ذلك من الأنس للقلوب المتوحشة من نشر الزّمان وأهله وتنشيط للنّفوس. (البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان): محمد بن محمد بن أحمد الملقب بابن مريم المديوني، تحقيق: محمد بن يوسف القاضي، مكتبة الثقافة الدينية، ط/١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص٥.

(٧) المصدر نفسه، ص٤٠٥.

ومن علماء تلمسان الذين ترجم لهم المؤلِّف: العلّامة محمّد بن عبدالكريم المغيلي التلمساني، والذي تتعلّق بعض جوانب حياته بتاريخ مملكة سنغاي.

فذكر أنّ هذا الفقيه بعدما جرى له ما جرى من قضية يهود توات غادر البلاد، واتّجه إلى بلاد السودان، فدخل آير وتكدة، حيث اجتمع بأميرها، وأخذ أهلُها العلم عنه، وانتفعوا به كثيراً، ثمّ يمّم كاتشينا وكانو، واجتمع بأميرها أيضاً، وألّف له رسالةً في بيان أحكام السلطنة الإسلامية، وبعد ذلك ارتحل إلى كاغو (غاوو)- عاصمة مملكة سنغاي-، حيث اجتمع بسلطانها أسكيا الحاج محمّد، الذي تأثّر بطريقة المغيلي في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وألّف له أيضاً تأليفاً أجاب فيه عن مسائل[1].

وذكر ابن مريم المديوني أنّه بينما كان المغيلي في غاوو فوجئ بنبأ وفاة ابنه على يدي يهود توات، فالتمس من أسكيا محمّد إلقاء القبض على يهود توات المقيمين في غاوو انتقاماً لما حصل لولده، فامتثل أسكيا لهذا الالتماس وسجنهم، غير أنّ القاضي أبا المحاسن (أو أبا الثّناء) محمود بن عمر أنكر هذا التّصرف على الملك؛ مبيّناً له أنّ هؤلاء لا ذنب استحقّوه يكون سبباً في أن يرسفوا في الأغلال، فعفَا عنهم الملك.

وأنّه بعد هذه الحادثة غادر المغيلي مملكة سنغاي، وعاد إلى وطنه توات، وبقي فيها إلى أن اخترمته المنيّة سنة ٩٠٩هـ[2].

ثالثاً: مؤلّفات ابن القاضي (ت١٠٢٥هـ) في التراجم:

١- (المنتقى المقصور على مآثر المنصور)[3]:

على الرّغم ممّا لابن القاضي في كتابه هذا بخصوص ذِكر مناقب أحمد المنصور الذّهبي (ت١٠١٢هـ) من مبالغاتٍ أكيدة ينبغي التّعامل معها بحَذر؛ كما عبّر عن ذلك محمّد بن الطّيب القادريّ (ت١١٨٧هـ) بقوله: «ومؤلِّفه هو أبو العبّاس ابن القاضي، له غلوٌّ وإطراءٌ في صاحب التّرجمة، فلذلك تركنا من كلامه ما الأَوْلى تركه»[4]، فإنّ ابن القاضي ذكر بعض المعلومات التاريخية المتعلّقة بتاريخ مملكة سنغاي التّي يمكن الاستفادة منها؛ وذلك في أثناء حديثه عن غزوة أحمد المنصور لها.

فقد رأى المؤلِّف أنّ من شواهد علوّ همّة أحمد المنصور وضخامة مملكته: دخول بلاد سنغاي في طاعته، واستيلائه على تلك البلاد بسلطة الهندام، وأنّ ذلك الفتح يُعدّ معجزةً وغُرّةً في جبين الدّهر هيّأه الله للمنصور، وصنع الله له الذي لم يتّفق لأحدٍ قبله[5].

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٣٣.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) وفاءً للجميل للسلطان أحمد المنصور الذّهبي الذي قام بافتداء المؤلّف من ربقة أسر الإسبان- الذّين قبضوا عليه وهو في طريقه إلى الحجّ-، وذلك في السابع عشر من رجب سنة ٩٩٥هـ، قام ابن القاضي بتأليف هذا الكتاب. انظر قصة ذلك في: (روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته بالحضرتَين مرّاكش وفاس): أحمد بن محمد المقرّي، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص (٦٧-٦٩). تعرّض هذا الكتاب لذكر مناقب أحمد المنصور، ومآثره، وجهاده، واعتنائه بالمرافق العامّة؛ من بناء المساجد، والقناطير، والمستشفيات، وإقامة المصانع، وبناء القصور والحدائق الملكيّة، وتأسيس الخزانات العلميّة، وتحبيس الكتب النّفيسة عليها، واهتمامه بإقامة الاحتفال الباذخ في المناسبات الدينية والقومية.

(٤) (نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثّاني): محمد بن الطّيب القادريّ، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، تحقيق: محمد حجّي وأحمد التوفيق، الرباط، ١٣٩٧ه/١٩٧٧م، (١/١٠٤).

(٥) (المنتقى المقصور على مآثر المنصور): محمد بن

ثمّ أخذ ابن القاضي يشـــرح تجهيزات المنصور لهذه المعركة وظروفها ونتائجها؛ فأشار إلى أنّه أمر في ١٥ ذي القعدة سنة ٩٩٨هـ بتجهيز جيشٍ عرمرم عظيم من جنوده المظفرة، بعُدد وعَدد من الإبل التي لا يمكن حصرها، وأن يُعسكر بظاهر مدينة مرّاكش برســم أخذ مُلْك الســودان، وأنّ هذا الاستعداد قد اســتغرق نحو شهر، فلمّا أتمّ العَســكرُ كاملَ أُهبتَه رحلوا بقيادة «جؤدر» قاصدين بلاد أســكيا إسحاق الثّاني، التي تتّسع رقعتها لما ينيف على مسيرة ستّة أشهر، فبعدما قطعوا فيح البيداء أَمّهم ملك سنغاي على مقربةٍ من بلاده بجيــشٍ ينيف عددُه على مائة ألفٍ من جنوده، فلم تمرّ ساعةٌ في ساحة المعركة إلاّ كتبَ اللهُ النّصر لجند المنصور وسلب أسكيا إسحاق مُلكه، وخُطب له على منابر بلاد السودان كلِّها[١].

٢- (درّة الحجال في أسماء الرّجال)[٢].

يلاحظ القــارئ أنّ ابن القاضي قد ترجم في هذا الكتاب لعــددٍ كبيرٍ من أعيــان طبقة العلماء والسّياسيّين والأدباء والصّالحين، الذين عاشوا في الفترة ما بين أواخر القرن السّــابع إلى أوائل القرن الحادي عشــر الهجريّين، وهذا الكتــاب وإن كان خاصّاً بتراجم الأعلام؛ إلاّ أنّنا يمكننا أن نســتخرج من سيرهم نُتفاً ذات صلةٍ بتاريخ مملكة سنغاي:

- ففي ترجمة أسكيا إسماعيل بن محمّد بن أبي بكر (ت٩٤٦هـ):

أشار ابن القاضي إلى أنّه سلطان «تنبكت» وما والاها من بلاد السودان، وأنّه تولّى السلطنة في تلك البلاد بعد سنة ٩١٠هـ[٣].

- وفي ترجمة مخلوف بن (علي) بن صالح المخلوفي البلبالي:

هو أحد أعيان علماء مملكة سنغاي، وصفه ابن القاضي بـ«الفقيه القاضــي»، وأنّه أخذ العلم على يــدي ابن غازي وغيره بمدينة فــاس، وأنّ له رحلةً وســماعاً صحيحاً وقلماً فصيحــاً، وأنّه توفي في حدود الخمسين وتســعمائة، وأنّه مدح الشّريف أبا العبّاس [محمّد الشّيخ] القائم بأمر الله (ت٩٢٣هـ)- سلطان الدولة السّعدية- بنظم؛ منه:

فللّــهِ هــــذا الهاشــمي وفضــلــه
فلــولاه صــالَ الكفــرُ أعظــمَ صولــةٍ[٤]

- وفي ترجمة أسكيا داود بن محمّد بن أبي بكر (ت٩٩١هـ):

أشار ابن القاضي إلى أنّه سلطان «تنبكت»، وأنّه توفي ســنة ٩٩٠هـ؛ ليتولّى الملك بعده ابنه أسكيا الحاج محمّــد (ت٩٤٤هـ)؛ الذي خلعه أخوه محمد بان بن أسكيا داود (ت٩٩٦هـ).

وممّا تفرّد به ابن القاضي، ولم يشاركه فيه غيره من أصحاب كتب التراجم والتاريخ، لفته الانتباه إلى كنية أسكيا داود، وهي «أبو سليمان»[٥].

- وفي ترجمة أبي الثناء محمود بن عمر أقيت الصّنهاجي:

وصفه ابن القاضــي بـ«فقيه تنبكتو» وقاضيها، وبأنّــه كان زاهداً عابداً عامــلاً، وذكر أنّ لصاحب التّرجمــة شــرحاً على مختصر خليل بن إســحاق الجنــدي، وأشــار إلــى أنّ وفاته كانت بعد ســنة ٩٩٠هـ[٦].

القاضي، دراسة وتحقيق: محمد زرّوق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، ١٩٨٦هـ، (٨٣٣/٢).

(١) المصدر نفسه، (٨٣٢/٢-٨٣٣).

(٢) لقد وضع محمد بن القاضي هذا الكتاب ليكون ذيلاً على كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلّكان، وليكون خدمةً لخزانة أحمد المنصور العلميّة. (درّة الحجال في أسماء الرّجال): أبو العبّاس أحمد بن محمد الشّهير بابن القاضي، تحقيق: محمّد الأحمدي أبو النّور، مكتبة التّراث- القاهرة/ المكتبة العتيقة- تونس، (د.ت)، (٤/١، ٥).

(٣) المصدر نفسه، (١١٤/١).

(٤) المصدر نفسه، (١٥/٣).

(٥) المصدر نفسه، (٢٦٧/١).

(٦) المصدر نفسه، (٣٢١/٢).

- وفي ترجمة أحمد بن عمر والد أحمد بابا التنبكتي:

ذكر ابن القاضي أنّه فقيهٌ مشاركٌ في الفنون من فقهاء تنبكت، وأنّه رحل إلى الحجاز، ولقي في طريقه ناصر الدّين اللّقاني (ت٩٥٨هـ) وقطب الدّين أحمد العجمي المكي-النّهراولي الخرقانيّ- (ت٩٩٠هـ)، وأنّه توفي سنة ٩٩١هـ[١].

- وفي ترجمة أسكيا أبي عبدالله الحاج محمّد الأمين بن داود بن محمّد:

وصفه ابن القاضي بـ«النّاسك»، وأفاد أنّ أخاه محمّد بان العافية ابن أسكيا داود خلعه من سلطنة سنغاي بموافقة إخوته[٢]، ثمّ أرّخ وفاته بسنة ٩٩٤هـ[٣].

- وفي ترجمة العلاّمة محمّد بن محمود بن عمر أقيت:

نصّ ابن القاضي على أنّه صنهاجيّ القبيلة من بلاد السودان، وأنّه قاضي تنبكت، وأنّه توفي بها سنة ٩٥٥هـ[٤].

- وفي ترجمة أحمد المنصور الذهبي:

أفاد ابن القاضي أنّ سلطنة المنصور امتدّت إلى بقاعٍ شاسعة لم يصل إلى مثلها ملكُ أحدٍ ممّن سلف، من لدن عهد عبدالملك بن مروان (ت٨٦هـ) وموسى بن نصير (ت ٩٧هـ) إلى زمنه؛ وهي قُطر السودان كلّه، الذّي تمّ فتحه على يدي مولاه «جؤدر باشا» (ت١٠١٢هـ) في إحدى الجمادين من سنة ٩٩٩هـ[٥].

- وفي ترجمة أسكيا إسحاق بن داود بن محمّد بن أبي بكر (ت٩٩٩هـ):

أشار ابن القاضي إلى أنّه هو ملك كاغو (غاوو) وما والاها من بلاد السودان، وأنّه تسلّم مقاليد الحكم في تلك البلاد من أخيه محمّد بان، وأنّ خادم أبي العبّاس أحمد المنصور خلع أسكيا إسحاق الثّاني من هذا المنصب في أواسط سنة ٩٩٩هـ[٦].

- وفي ترجمة جؤدر:

أشاد ابن القاضي بحَزْمه وعَزْمه وقوّته على الحرب، كما أشار إلى أنّه كان قائداً مملوكاً من مماليك أبي العبّاس أحمد المنصور، فهو الذي كتب الله على يديه فتح بلاد السودان سنة ٩٩٩هـ[٧].

- وفي ترجمة محمود بن عليّ بن زرقون (ت١٠٠٣هـ):

وصفه ابن القاضي بأنّه أحد مماليك المخدوم أبي العبّاس أحمد المنصور وأحد قوّاد الرّماة[٨]، وأنّ مالكه وجّهه قائداً إلى بلاد السودان برفقة محمّد بن أبي بركة لمواصلة فتح المدن التّي لم تكن قد خضعت بعد لحكم الدّولة السّعدية؛ لِما بلغ

---

(١) المصدر نفسه، (١/١٥٥).

(٢) ذكر السّعدي أنّ آسكيا الحاج محمد بن آسكيا داود كان مصاباً بعلّة القروح في إليته، لازمته كثيراً، ومنعته من التّصرف، حتّى إنّه لم يغزو ولو لمرّة واحدة. انظر: (تاريخ السودان): عبدالرّحمن بن عبدالله بن عمران بن عامر السّعدي، وقف على طبعه هوداس وتلميذه بنوة، مطبعة أمريكا والشرق، باريس،١٩٨١م، ص١١٥.
والظّاهر أنّ خلع إخوته يعود إلى هذا السّبب؛ إذ إنّ من تقاليد الحكم عند سنغاي أنّ العاهة الأصليّة والطّارئة مبطلة لأحقيّة المرء في الحكم.

(٣) (درّة الحجال في أسماء الرّجال)، مصدر سابق (٢/٢٢٩).

(٤) المصدر نفسه، (٢/١٩٠).

(٥) المصدر نفسه، (١/١١٨-١١٩).

(٦) المصدر نفسه، (١/٢٠٧).

(٧) المصدر نفسه، (١/٢٣٣).

(٨) اسم أُطلق في أوّل الأمر على حملة الأسلحة النّاريّة من جند أحمد المنصور الذّهبي. ثمّ أصبح يُطلق بعد استقرار الجيش المغربي في بلاد سنغاي على جيل هجين؛ سلالة بعض أفراد الجيش المغربي المولّدين من نساء الأرستقراطيّة المحليّة في تلك البلاد، والذّين يُعرفون عند السّكان المحلّيين باسم «آرما»، وكان هذا الاسم- كما يرى د. محمّد الغربي- يُطلق في المغرب نفسها على من انحدر من المورسكيين بعد إقامتهم في المغرب. بداية الحكم المغربي في السّودان الغربي: د. محمد الغربي، مؤسسّة الفليح للطباعة والنّشر، الكويت، (د.ت)، ص٥٦٩.

سيّده من أنّ بلاد السودان متّسعةٌ جدّاً، مفتقرةٌ إلى رؤســـاء متعدّدين، وأنّ ابن زرقون تولّى في عمليّات ذلك الفتح أمر الأســـطول الحربـــي الجاري هنالك على نهر النّيل (نهر النّيجر)[١].

- وفي ترجمة أبي عبدالله محمد بن عليّ الفشتالي (ت١٠٢١هـ):

اختار ابن القاضي طائفةً متفرّقة من قصيدته اللّامية، التّي أنشـــأها بمناسبة تهنئة مخدومه أبي العبّـــاس أحمـــد المنصور الذّهبي علـــى فتح بلاد السّودان في عهده، وممّا جاء فيها:

قولوا لملك السّود إذ جمحتْ به
جهلاً سوابقُ بغيه في مَجْهَلِ
تلك العساكر مدُّها من ربّها
والرّأي عند عميدها لم يُهْمَلِ
إنّ البُغَاث[٢] - ولو تكاثر عدُّها -
ليس لها في البطش شأن الأجدلِ[٣][٤]

٣- (جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس):

على الرّغم من كون هـــذا الكتاب قد ألّفه ابن القاضي خصيصاً للتّعريف بأعيان العلماء والملوك والقـــادة العســـكريّين والصالحيـــن، الذين وطئت أقدامهم مدينة فاس خلال الحقبة الزمنية الممتدّة مـــن منتصف القرن الرابع الهجـــري إلى منتصف القرن العاشر الهجري، على الرّغم من ذلك؛ فإنّه لم تخل بعض التراجم الواردة فيه من بعض الإشارات التّي تتضمن شيئاً من تاريخ مملكة سنغاي.

فمـــن الأعلام الذيـــن وردت تراجمهم في هذا الكتاب ولهم صلة بتاريخ مملكة سنغاي:

- أحمد المنصور الذهبي:

الذي وصفه ابن القاضي بأنّه إمامٌ شجاع، ملك أرض السودان وتوات وتيكورارين، وأنّ قَدْرَ ما ملك في أرض السودان يبلغ مسيرة شهرين أو أكثر[٥]،[٦].

- مخلوف بن علي بن صالح الخلوفي البلبالي:

هو أحد أعيان علماء مملكة سنغاي، الذي تناول ابن القاضي ترجمته بنفس المعلومات التي أوردها عنه في كتابه (درّة الحجال في أسماء الرّجال)[٧].

رابعاً: (صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر) للإفراني (ت بعد ١١٥٥هـ):

ضمّن محمـــد الصّغير الإفراني هـــذا الكتابَ تراجم أعلام مغاربة وغير مغاربة، بلغ عددهم ٢٧٣ عَلماً، عاشوا في القرن الحادي عشر الهجري- كما يوحي عنوان الكتاب بذلك-[٨]، وقد أورد إشـــاراتٍ

(١) درة الحجال في أسماء الرّجال، مصدر سابق، (٢/٣٢٥-٣٢٦).

(٢) هو كلّ طائر ليس من جوارح الطير، واحدتها بغاثة، بالفتح، الذكر والأنثى في ذلك سواء. لسان العرب: محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، دار صادر- بيروت، ط/٣، ١٤١٤ه، (٢/١١٨).

(٣) هو الصّقر. مختار الصّحاح: محمد بن أبي بكر الرّازي، تحقيق: يوسف الشّيخ محمّد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت- صيدا، ط/٥، ١٤٢٠ه / ١٩٩٩م، ص٥٥.

(٤) (درّة الحجال في أسماء الرّجال)، مصدر سابق، (٢/١٩٠).

(٥) وقد شكّك القادري في مقدار هذه المساحة الأرضية من بلاد السودان التي زعم ابن القاضي أنّ مولاه أحمد المنصور الذّهبي قد ضمّها إلى سلطنته؛ حيث قال: «وما ذكره من ملك إلخ؛ فالله أعلم بكيفيّته لملكه ذلك وصحّته». (نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثّاني)، مصدر سابق، (١/١٠٥). والواقع يؤكّد صحة تشكيك القادري؛ فإنّ أحمد المنصور لم يثبت ملكه في بلاد السّودان إلاّ على غاوو العاصمة وحواليها، وتنبكت وحواليها ومدينة جنّي.

(٦) (جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس): أحمد ابن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣م، (١/١١٤).

(٧) المصدر نفسه، (٢/٣٣٤).

(٨) غير أنّه سرعان ما يتّضح لمن تصفح كتاب (الصّفوة) أنّ الوفراني قد تجاوز حدود هذا الإطار الزّمني الذّي يوحي به عنوانها؛ فألمّ المؤلّفُ بطرف من أخبار بعض أعيان القرن الثاني عشر الهجري. (مؤرخو الشّرفاء): ليفي بُرُوفَنْصال،

سياسية وثقافية ذات صلة بتاريخ مملكة سنغاي؛ وذلك في ثنايا تعرّضه لسيرة حياة اثنَيْن من أعلام الفكر والثّقافة فيها، وبعض صلاتهم بالحياة السياسية والثقافية في بلادهما، وهما: محمّد بن محمود بن أبي بكر بغيغ الونكري (ت١٠٠٢هـ)، وأحمد بابا التنبكتيّ (ت١٠٣٦هـ).

والإشارات الثقافية ذات الصّلة بتاريخ مملكة سنغاي: الجهود التّعليمية لمحمد بن محمود بغيغ، الذي نقل الإفراني وصف العلّامة أحمد بابا التنبكتي له بأنّه لا يبعد أن يكون المجدّد على رأس القرن العاشر الهجري؛ فقد أشار الإفراني إلى أنّ بغيغ كان لا يملّ من توصيل العلم ونقله إلى طلبة العلم، مع محبّته لهم، لدرجة أن يبذل لهم نفائس الكتب العزيزة الغريبة من خزانته على وجه الإعارة من غير شرط ولا قيد، ومن غير معرفة لشخص المستعار له، ثمّ لا يفتّش بعد ذلك عنها، كما أشار الإفراني إلى أنّ لهذا الفقيه حواشي على شرح التّتائي الكبير لمختصر خليل[١].

والجهود التعليمية لأحمد بابا التنبكتي، الذي كان حريصاً على نشر العلم، ومعتنياً بالتّأليف، وهي: أنّه استطاع تصنيف عدة كتب تزيد على أربعين تأليفاً، انتشرت بين الناس، كما قام بالإقراء في جامع الشّرفاء بمدينة مرّاكش، وازدحم عليه طلبة العلم من جميع أرجاء المغرب العربي للاستفادة منه، وأُسندت إليه أيضاً مهمّة الإفتاء في مرّاكش، ممّا كان سبباً في اشتهار اسمه في بلاد المغرب الغربي، من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر وغيرها[٢].

والإشارة السياسية ذات الصّلة بتاريخ مملكة سنغاي: المحنة العظمى التّي تعرّض لها العلّامة أحمد بابا التنبكتي وأفراد أسرته، وهي قيام أحمد المنصور بعد تغلّبه على مملكة سنغاي بسوقهم جميعاً إلى مرّاكش مقيّدين بالسّلاسل، ثمّ إيداعه لهم في السّجن هنالك لمدّة سنتَيْن، وفي طريق السّفر تمّ نهب كتبهم ومتاعهم، وانكسرت رِجل أحمد بابا التنبكتي[٣].

خامساً: مؤلّفات محمد بن الطّيب القادريّ في التّراجم:

١- (نشر المثاني لأهل القرن الحادي والثاني عشر) للقادري[٤]:

يتجلّى مدى حضور تاريخ مملكة سنغاي في هذا الكتاب؛ في كون القادري قدّم للقارئ مجموعةً من المعطيات التاريخية التي تخصّ هذه المملكة، والتّي تمتد إلى جانبَيْن رئيسَيْن: سياسيّ وثقافيّ.

أمّا الجانب السّياسي؛ فيتمثّل في لفته النّظر إلى التّوسع السّعدي وبعض حصيلته في بلاد سنغاي؛ فنقل عن ابن القاضي أنّ أحمد المنصور

تعريب: عبدالقادر الخلّادي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٣٩٧ه/١٩٧٧م، ص٢١٨.

(١) صفوة مَن انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر: محمد الصغير الوفراني، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء– المغرب، ط/١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص (١٨٩-١٩٠).

(٢) المصدر نفسه، ص١١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١١٥.

(٤) عُني محمّد بن الطّيب القادري في هذا الكتاب بتراجم ما يزيد على أربعمائة وثلاثة عشر شخصاً من أفراد هذه الأُمّة: علماء وصالحين وأدباء وموظّفين من السُّودانيّين والمغاربة والمشارقة، ممّن عاشوا في القرنين: الحادي والثاني عشر الهجريين، مبرزاً جوانب تأثّرهم وتأثيرهم في الأحداث التّاريخيّة التّي دارت رحاها حولهم. وقد ألّفه صاحبه لسببَيْن: أن يكون ذيلاً على كتابي: (الوفيات) لابن قنفذ القسنطيني و(درّة الحجال في أسماء الرّجال) لابن القاضي، وتحقيق مشروع كتاب بعنوان: (نزهة النّادي في القرن الحادي)، كان جدّه عبدالسّلام القادري (ت١١١٠ه) قد وضع أسسه، وهو تقييد وفيات الأعيان من أهل المائة الحادية والثانية عشرة، غير أنّه لم يتّفق له إلاّ ذكر ترجمة واحدة حتّى اخترمته المنيّة. (نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثّاني)، مصدر سابق، (١/٩-١٠).

قام بفتح بلاد السودان، وأنّ مقدار ما ملك في تلك البلاد مسيرة شهرَيْن، مشتملة على جميع المناطق الواقعة على ضفاف النّيل السوداني، مبدياً تشكّكه- بعبارةٍ صريحة- في مقدار هذه المساحة الأرضية من بلاد السودان التي زعم ابن القاضي أنّ مولاه أحمد المنصور الذهبي قد ضمّها إلى سلطنته؛ حيث قال: «وما ذكره من ملك السودان إلخ؛ فالله أعلم بكيفيّته لملكه ذلك وصحّته»[١].

كما أشار القادري إلى المحنة التّي لحقت فقهاء أسرة «أقيت» التي توارثت العلم فيها نحو خمسمائة سنة- ومنهم أحمد بابا التنبكتي- جرّاء الغزو المغربي لبلادهم. ثمّ أدان القادري بلهجةٍ شديدة حبس أحمد المنصور لأحمد بابا التنبكي[٢] بصفةٍ خاصّةٍ بقوله: «ولمثل هذا تبكي البواكي، فلو احترم إقليم بعد جناية أهله ما يوجب عقوبة جميعهم لمثل هذا العالم الوحيد القدر العليّ الذِّكر الذّي يقلّ وجود مثله في الدّهر لكان ذلك أمراً أكيداً وفعلاً حميداً، ثمّ إنّه استولى على من يعرض لهذا الأمر الفظيع والفعل الخسيس الشّنيع داعي الهوى والشيطان، حتّى باء بالبعد والخسران، فكان ختام أمره، وفي مثالب ذكره، فأصبح من العار بمكان، وكان من أمره ما كان، وباء بالعناد والطّغيان...»[٣].

أمّا الجانب الثقافي؛ فيبرز في ترجمة القادري لثلاثة رجال من أعلام الفكر والثقافة في مملكة سنغاي- وعاش بعضهم شطراً من العهد السّعدي- وهُم: أحمد بابا التنبكتيّ السوداني، ومحمد بن محمود بغيغ، ومحمود بن عمر أقيت؛ فأشار ضمناً إلى بعض طرق التّلقي التي حصّل بها بعض هؤلاء العلماء معارفهم زمن سنغاي، وجوانب النّبوغ فيهم، ومصنّفاتهم، وإجازات بعضهم للعلماء والطلبة، وثناء أهل العلم على بعضهم، وجهود بعضهم في أعمال البرّ والخير، وتولّي بعضهم لمنصب القضاء في مدينة تنبكت، وامتناع آخرين منهم عن تولّيه، وتواريخ وفاياتهم[٤].

٢- (التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان المائة الحادية والثانية عشر) للقادري:

بما أنّ كتاب (التقاط الدّرر) في الحقيقة تلخيص لكتاب القادري المطوّل (نشر المثاني لأهل القرن الحادي والثاني عشر)[٥]، كما عبّر المؤلّف نفسه عن ذلك بقوله: «واختصاره، وهو هذا، وأشرت إلى تسميته أوّلاً، وهو: التقاط الدُّرر»[٦]،

(١) المصدر نفسه، (١/١٠٥).

(٢) يلاحظ أنّ محنة العلاّمة أحمد بابا التّنبكتي وأفراد أسرته قد شغلت حيّزاً كبيراً في كتب التراجم والتاريخ المغربية، بينما هنالك بعض ملوك سنغاي قد تعرّضوا لمحنٍ أكثر مأساويّةً ممّا تعرّض له أحمد بابا التنبكتي، مثل قيام موسى بعزل أبيه آسكيا محمد الذي بقي محبوساً مدّة طويلة بإحدى الجزر قرب مدينة غاوو يتعرّض للحشرات، ومثل آسكيا محمّد غاوو الذّي قيّده الباشا محمود بن زرقون في حضرة قومه ثمّ قتلة قتلة شنيعة، ومثل أحد أحفاد الشّريف الصّقلي الذّي مات شنقاً في وسط سوق تنبكت على أيدي زبانية ابن زرقون، وقد يعود سبب هذا الزّخم إلى ما كان يملكه أحمد بابا التنبكتي من أدوات التعبير التي أسعفته في التصريح الإعلاني عن محنته وتخليدها من خلال الأثر المدوّن، أي كتابه: (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج).
كما أنّ محنة التنبكتي قد احتلّت حيّزاً في كتب التراجم والتاريخ السودانية، وقد أشار د. أحمد الشّكري إلى أنّ هذا الزّخم تغذّى من ثقل الإحساس بالعدل الاجتماعي لدى السودانيين. الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م- نموذج بلاد السودان-: أحمد الشّكري، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بجامعة محمد الخامس، الرباط، ٢٠١٠م، ص (٣٢٣-٣٢٤).

(٣) (نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني)، مصدر سابق، (١/٢٧٦).

(٤) المصدر نفسه، (١/٤٠)، (١/٢٧١-٢٧٦).

(٥) لكن اختلط هذا الأمر على المستشرق: ليفي بُرُوفَنْصال (ت١٣٧٧هـ/١٩٥٦هـ) فظنّ أنّ كتاب (التقاط الدّرر) هو الأصل وكتاب (نشر المثاني) فرعٌ لاحق، وسبب خطئه زعمه أنّ القادري لم يشر إلى كتابه النّشر ضمن لائحة مؤلّفاته التّي سردها في خاتمة كتابه (التقاط الدّرر)، ومن ثَمَّ توهّم أنّ (النّشر) أُلّف فيما بعد. مؤرّخو الشّرفاء، مصدر سابق، ص٢٣٠.

(٦) (التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار أعيان

فإنّ معطيات أحد هذَيْن الكتابَيْن: النّشر والالتقاط حول مملكة سنغاي تُغني في الحقيقة إحداها عن الأخرى؛ إذ إنّ الكتابَيْن كما قال ليفي بُرُوفَنْصال: «شبيهان من حيث الموضوع والأسلوب، إلى حدّ أنّه يمكن اعتبارهما نسختَين لكتاب واحد، إلاّ أنّه إذا كانت المقارنة بينهما تبدي أنّ المؤلّف كان في الثّاني أكثر ضبطاً وأشدّ حرصاً على تسجيل ما جدّ لديه من معلومات؛ فإنّها تبدي أيضاً أنّ تاريخ التراجم في البدء والانتهاء في كليهما كان سنة ١٠٠١هـ و١١٧٠هـ، وأنّهما لا يختلفان في ترتيب تلك التراجم ولا في محتواهما الإجمالي»[١].

سادساً: كتاب (الطبقات) للحضيكي (ت١١٨٩هـ):

ألّف محمّد بن أحمد الحضيكي هذا الكتاب للتّعريف بالأعيان من مشايخه وأشياخهم وغيرهم من أهل المشرق والمغرب؛ الذّين عاشوا خلال القرنين: العاشر والثاني عشر الهجريّ دون تقديم لائحة بمقروءاتهم وإجازاتهم؛ قال أبو زيد عبدالرحمن الجشتيمي (ت١٢٦٩هـ):

«ذكر فيه الأكابر المشاهير، ونبّه فيه على جماعة لم يُسبق إلى التّنويه بأقدارهم، واستوعب فيه جميع أشياخه وأشياخهم من أهل المشرق والمغرب»[٢]، غير أنّ الكتاب تضمّن، في ثنايا بعض تراجمه، مقتطفات ذات صلة بتاريخ مملكة سنغاي.

ويمكن إبراز معطيات تلك المقتطفات في الجوانب الآتية:

١- الجانب السياسي: ألمح الحضيكي، في معرض ترجمته للفقيه أحمد بن عمر بن محمّد أقيت، إلى احتلال سونني علي لمدينة تنبكت عام ٨٧٣هـ الذّي سمّاه بـ«فتنة الخارجي»[٣].

كما أشار الحضيكي إلى محنة العلّامة أحمد بابا التنبكتي وأفراد أسرته، التي سبقت الإشارة إليها[٤].

كما لفت الحضيكي الأنظار إلى مدى تعظيم بعض ملوك سنغاي للعلماء[٥].

من الهفوات التي وقع فيها الحضيكي نتيجة النّقل المحض غير الفاحص: قوله عن المغيلي: فأحيا الله به الدين في بلاد توات والسودان، ونفى اليهود من تلك البلاد فلا يدخلونها أبداً، وحيثما ظهروا بها قتلوا[٦].

٢- الجانب الثقافي: ركّز الحضيكي كثيراً على هذا الجانب؛ حيث ترجم لثمانية من أعلام الفكر والثقافة في مملكة سنغاي من أهل البلاد والوافدين، وهم: الفقيه أحمد بن عمر أقيت، وأحمد بن أحمد أقيت، وأحمد بن محمّد بن سعيد التنبكتي، والعلّامة أحمد بابا التنبكتي، ومحمد بن محمود التنبكتي بغيغ، والقاضي محمود بن عمر التنبكتي، ومخلوف بن علي البلبالي، والنّجيب التكداوي، مبرزاً جوانب النّبوغ والتخصّص فيهم، ومصنّفاتهم، وجهودهم التعليمية، وتلامذة بعضهم، وإجازات بعضهم للعلماء والطّلبة، وثناء أهل العلم على بعضهم، وتولّي بعضهم لمنصب القضاء في مدينة تنبكت، وامتناع آخرين منهم عن تولّيه، وتواريخ مواليدهم ووفياتهم[٧].

المائة الحادية والثانية عشر): محمد بن الطّيب القادري، دراسة وتحقيق: هاشم العلويّ القاسميّ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط/١، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، (٢/٢).

(١) مؤزّخو الشّرفاء، مصدر سابق، ص٢٣٠.

(٢) الحضيكيّون، تقديم وتحقيق: المجلس العلميّ لتارودانت، مطبعة النجاح الجديدة، الدّار البيضاء، ط/١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م، ص٦٣.

(٣) طبقات الحضيكي، لمحمد بن أحمد الحضيكي ، ت ١١٨٩هـ /١٧٧٥م) ، تقديم وتحقيق :أحمد بومزكو - مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء - الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م ، (٣١/٢).

(٤) المصدر نفسه، (٤٥/٢).

(٥) المصدر نفسه، (٢/ ٣٨٨-٣٨٩).

(٦) المصدر نفسه، (٢٤٦/٢).

(٧) انظر: المصدر نفسه، (٣٠/٢-٣١)، (٣٢، ٤٤-٤٦)،

٣- الجانب الاجتماعي: من الملاحظات التي سجّلها الحضيكي في هذا الجانب: جهود محمد بن محمود بغيغ التنبكتي في أعمال البرّ والخير[١].

سابعاً: (تعريف الخلف برجال السّلف) للحفناوي (كان حيّاً سنة ١٣٢٤هـ)[٢]:

ترجم أبو القاسم محمّد بن أبي القاسم الحفناوي في هذا الكتاب لاثني عشر رجلاً من أعلام الفكر والثقافة في مملكة سنغاي؛ وهُم نفس الأشخاص الذين ذكرهم العلّامة أحمد بابا التنبكتي في كتابه (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج) باستثناء النّجيب التّكداوي، وهُم: أحمد بابا التنبكتي، وأحمد السوداني شارح الآجرومية، وأبوبكر بن أحمد التنبكتي، وأحمد بن أحمد بن عمر أقيت، وأحمد بن سعيد التنبكتي، وأحمد بن عمر بن محمّد أقيت، والعاقب بن عبدالله الأنصمني، والعاقب بن محمد بن عمر التنبكتي، وعبدالله بن عمر بن محمد أقيت المسوفي، وعبدالله بن محمود بن عمر التنبكتي، محمود بغيغ، محمد بن محمود بغيغ، هذا بالإضافة إلى عالم وافد زائر لمملكة سنغاي، وهو محمد بن عبدالكريم المغيلي، الذي في بعض جهات ترجمته صلة بتاريخ هذه المملكة[٣].

وبالنّظر إلى معطيات هذا الكتاب حول تاريخ مملكة سنغاي؛ يلاحظ أنّها لا تختلف عن حدود إسهام كتاب (كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الدّيباج) لأحمد بابا التنبكتي[٤].

ثامناً: (شجرة النور الزكية في تراجم علماء المالكية) لمحمد محمد مخلوف (ت١٣٦٠هـ)[٥]:

يُعدّ هذا الكتاب موسوعةً حديثة في تراجم علماء المالكية الذين عاشوا خلال القرنَيْن: الثالث الهجري والقرن الرابع الهجري، يمكن للباحثين أن يستخلصوا منه مادّةً علمية تتعلّق بتاريخ مملكة سنغاي.

وتتلخص جوانب إضافة كتاب (الشجرة) في تدوين تاريخ تلك المملكة فيما يأتي:

أ- ترجم المؤلّف لعشرة من أهل العلم والفكر في مملكة سنغاي، حاشراً لهم جميعاً في فرع فاس- ولم يُفرد لهم فرعاً خاصّاً-، وهُم بين أهل الطّبقات الثّلاث: التاسعة عشرة والعشرين والحادية والعشرين، وهُم نفس الأشخاص الذين سبق أن ترجمهم الحفناوي[٦].

كما ترجم لبعض أعلام مصر والحجاز والمغرب، الذين لهم صلةٌ في بعض جوانب حياتهم

(٣٥١-٣٥٢)، (٣٦٨، ٣٨٨-٣٨٩).

(١) انظر: المصدر نفسه، (٣٥١/٢).

(٢) في سنة ١٢٣٣هـ/١٩٠٤م؛ قام الوالي الفرنسيّ: شارليه جونار Charles jonnart في الجزائر بتشييد المدرسة الثّعالبيّة على شاطئ البحر، بهندسة معماريّة عصريّة بديعة، ونقشت جدارن قبابها الخمسة بأسماء اثنين وثلاثين من جلّة رجال العلم في القُطر الجزائري وما في حكمه، بالخطّ الأندلسي الرّائع، مرقومة مع أسمائهم تواريخ ولادتهم ووفياتهم بالتّرتيب السّنوي؛ وهم أسماء المترجمين في القسم الأوّل من هذا الكتاب، ثمّ أضاف إليهم المؤلّف أسماء أعلام آخرين في القسم الثّاني من الكتاب. (تعريف الخلف برجال السّلف): أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الحفناوي، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، ١٣٢٦هـ/١٩٠٦م، (٥/١-٦).

(٣) انظر: المصدر نفسه، (١٢/١-٢١، ٣٣، ١٦٨)، و(٢٤/٢-٢٥، ٣٢، ٥٤، ٦٧-٦٨، ١٩١-١٩٣، ٢٣٣-٢٣٤، ٢٤٢-٢٤٣، ٥٠٢-٥٠٦).

(٤) لمعرفة تلك المعطيات بشكل مفصّل راجع: عبدالرحمن خليفة سادو جالو، التدوين التاريخيّ لمملكة سنغاي من القرن ١٠هـ إلى القرن ١٥هـ- دراسة نقدية موضوعية، رسالة علميّة مقدّمة لنيل درجة الماجستير بقسم التاريخ الإسلاميّ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، ١٤٣٨هـ-١٤٣٩هـ، ص٢٦٦.

(٥) ألّف المؤلّف هذا الكتاب ليكون ذيلاً على كتاب (نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج) لأحمد بابا التنبكتي؛ فترجم فيه للأعلام الأئمة الذين جاؤوا بعد التنبكتي إلى عهده، مضافاً إليهم تراجم كثير من أعيان أئمة الدين والملّة قبل الخمس سنين بعد الألف.

(٦) (شجرة النّور الزّكية في تراجم علماء المالكية): محمد محمد مخلوف، تحقيق: عبدالمجيد خيالي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط/١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، (٤٠١/١-٤٠٢، ٤١٢، ٤١٤-٤١٥، ٤١٦، ٤٣٢-٤٣٣).

بمملكة سنغاي، وهُم جميعاً بين أهل الطبقتَيْن: التاسعة عشرة والعشرين، وهُم: ناصر الدّين اللّقاني، وعبدالمعطي السّخاوي (ت٩٦٠هـ)، ويحيي بن محمد بن محمد الحطاب (ت٩٩٣هـ)، وبركات بن محمّد بن عبدالرّحمن الحطّاب (ت بعد ٩٨٠هـ)، وأبو زيد عبدالرحمن بن علي الأُجْهُوري (ت٩٥٧هـ)، وعبدالرحمن بن الحاج المغربيّ الطّرابلسيّ الشهير بالتاجوري (ت حوالي ٩٦٠هـ)، وعبدالرحمن بن علي الفاسيّ الشهير بسقين (ت٩٥٦هـ)[١].

ب- وفي ثنايا تلك التراجم؛ أشار المؤلّف إلى محنة العلّامة أحمد بابا التي سبقت الإشارة إليها.

كما قدّم المؤلّف قائمةً مفصّلة لشيوخ علماء سنغاي المترجم لهم، وبمقروءات بعضهم على شيوخهم، ولائحة مصنفاتهم، وقائمة الكتب التي عُني بعضهم بتدريسها، وإجازاتهم لبعض الأعيان.

كما صوّر المؤلف العلاقة الثقافية التي كانت تربط بعض أعلام المغرب والحجاز ومصر ببعض علماء مملكة سنغاي، عن طريق رحلات العمرة والهجرة، من حيث التباحث والإفادة والإجازة العلمية.

تاسعاً: (الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام) للسّملالي (١٣٧٨هـ):

موضوع هذا الكتاب كما يُفهم من عنوانه: ذِكر تراجم مَن حلّ مدينتي مرّاكش وأغمات، من الرّجال النّابهين، سواء كانوا من أهلهما أو من غيرهما، مع التمهيد لهذه التراجم بوصف المدينتَيْن، وبيان فضلهما وما اختصّتَا به من المزايا، كما يقتضيه المنطق، ووفقاً لما جرت به عادة من دوّنوا في التراجم من المغاربة وغيرهم قبل المؤلّف[٢].

ومن أعلام هذا الكتاب، الذين لأخبارهم في بعض جهاتها صلةٌ وثيقة بتاريخ مملكة سنغاي: الإمام محمّد بن عبدالكريم المغيلي، والسّلطان أحمد المنصور الذهبي، ومخلوف بن علي البلبالي، والقاضي عمر بن محمّد أقيت، وأحمد بابا التنبكتي، وعمر بن أحمد (باكري) أقيت.

والمادّة الإخبارية الواردة لا تختلف عمّا ورد في بعض المصادر السابقة، لذلك لا داعي إلى تكرارها، باستثناء ما يتعلّق بعمر بن أحمد (باكري) أقيت؛ حيث ذكر أنّه كان من عادته سرد كتاب (الشّفا) للقاضي عياض في كلِّ رمضان في مسجد ابن شقراء بمدينة مرّاكش[٣].

الخاتمة:

يتّضح ممّا سبق؛ أنّ جوانب مهمّة من تاريخ مملكة سنغاي الإسلامية في القرن: العاشر الهجريّ قد حظيت باهتمام عددٍ من أصحاب كتب التراجم المغربية؛ وذلك من خلال بعض الإشارات التاريخية التي طرحوها عنها في ثنايا أخبار بعض الأعلام، ممّا سمح بوجود مادّةٍ تاريخيةٍ علمية، يمكن أن يستفيد منها الباحثون والكتّاب والمؤرّخون المعاصرون في أبحاثهم ودراساتهم حول تاريخ مملكة سنغاي، والعلاقات التي كانت بينها وبين بلدان المغرب العربيّ.

وأخيراً؛ ألفت انتباه الباحثين والمؤرّخين المعاصرين إلى ضرورة التنويع في مصادر دراسة مملكة سنغاي، ككتب الإجازات والفهارس وكتب النوازل ونتائج الدراسات الأركيولوجية وكتب شروح الحديث وغيرها، وإلى عدم الاقتصار على كتب التاريخ وكتب البلدان والجغرافيا الطبيعية التقليدية التي تناولت تاريخ مملكة سنغاي- كتاريخ الفتّاش لمحمود كعت، وتاريخ السودان لعبدالرحمن السعدي، ووصف إفريقيا للوزّان، ورحلة ابن بطوطة، والمسالك والممالك للبكريّ-، لأنّ ذلك يؤدّي إلى غناء وثراء في المادّة العلمية التاريخية ■

(١) انظر: المصدر نفسه، (١/٣٩٢، ٤٠٣-٤٠٥).

(٢) (الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام)، قسم التحقيق (١/ح).

(٣) المصدر نفسه، (٢/٢٥٥-٢٥٦، ٣٠٢-٣٠٧)؛ و(٥/١٠٧-١٠٨) و(٧/٢٣٥) و(٩/٢٩٣-٢٩٤).